تحوُّلات المكان في قصص الطفِّ
الملهوف على قتلى الطفوف اختيارًا
(دراسة ثقافيَّة)

م.د. مُحمَّد حليم حسن الكرويّ
المديريَّة العامَّة للتربية في بابل

Transformations of the Place in the Stories of Al-Tuff, (Al-Malhouf Ala Qatla Al-Tafuf) As A Sample (Cultural Study)

Asst. Dr. Muhammad Halim Hassan Al-Karawi
Babylon General Education Directorate

ملخَّص البحث

لقد أفرزت الثقافة العربيَّة إبَّان الحكم العبَّاسيّ أصنافًا نثريَّة تمثِّل ذروة الإبداع الفنِّيّ في تلك الحقبة الزمنيَّة، فقدَّمت لنا ألوانًا من القصص الذي جمع الواقع والخيال، بل وصل أبعد من ذلك، إذ نجد بعض القصص تتَّصل مباشرةً بعالم الفانتازيا، الأمر الذي يكشف لنا خِصب القريحة العربيَّة من أمثال (كليلة ودمنة، ورسالة الغفران)، وكان من ضمن هذه الألوان القصصيَّة نوع يعتمد على القصص التاريخيّ، فيرسم لنا الراوي واقعةً تاريخيَّةً، لكن ليس بأسلوب السَّرد التاريخيّ، بل يقدِّم التاريخ بأسلوب القصَّة، وهذا يقتضي منه أن يحذف السَّند ولا يعبِّر عنه، أو يعبِّر عنه بقوله: (قال الراوي)؛ وذلك لأنَّه يدرك في قرارة نفسه أنَّه يقترب من نظام القصص أكثر من نظام السيرة أو التاريخ.

ويتجسَّد هذا الأسلوب في كثير من المؤلَّفات التي شاعت في العصر العبَّاسيّ، ومنها كتاب (الملهوف على قتلى الطفوف) لابن طاووس الحِلِّيّ (ت٦٦٤هـ)، إذ قدَّم حادثة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام بصورة قصصيَّة تتناسب مع تلك المرحلة الأدبيَّة، فجاء بحثنا ليدرس تحوُّلات المكان وتقلُّباته في هذا الكتاب، تحت عنوان (تحوُّلات المكان في قصص الطفِّ، الملهوف على قتلى الطفوف أنموذجًا).

Abstract

The Arab culture during the Abbasid rule produced prose genres that represented the peak of artistic creativity in that time. It provided us with different types of stories that combined reality and imagination, and even reached far beyond that, as we find some stories directly related to the world of fantasy, which reveals to us the fertility of the Arab spirit, such as (Kalila and Dimna, and risalat alghafran) Among these narrative colors was a type that relies on historical stories, so the narrator depicts a historical fact for us, but not in the style of historical narration, but rather presents history in the style of the story, and this requires him to delete the bond and not express it or express it by saying: (The narrator said); This is because he realizes in his heart that he is closer to the system of stories than to the system of biography or history.

This method is embodied in many of the books that were popular in the Abbasid era, including the book (Al-Malhouf ala qatla Al-Tafuf) by Ibn Tawus Al-Hilli (664 AH), where he presented

the incident of the martyrdom of Imam Hussein (peace be upon him) in an anecdotal form that fits with that literary stage, so our research came to study the transformations of the place And its fluctuations in this book under the title: (Transformations of the place in the stories of Al-Tuff, (Al-Malhouf ala qatla Al-Tafuf) as a sample).

مقدِّمة

الحمـدُ لله ربِّ العالمـين، الـذي علَّـم بالقلم، علَّم الإنسـان ما لم يعلـم، والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين أبي القاسم محمَّد وعلى آله وصحبه الطيِّبين المنتجَبين.

أمَّا بعد

فقـد أفرزت الثقافـة العربيَّة إبَّان الحكـم العبَّاسيّ أصنافًا نثريَّة تمثِّـل ذروة الإبداع الفنِّـيّ في تلك الحقبة الزمنيَّة، فقدَّمت لنا ألوانًا من القصص الذي جمع الواقع والخيال، بـل وصل أبعد من ذلـك، إذ نجد بعض القصص تتَّصل مباشرةً بعـالم الفانتازيا، الأمر الذي يكشـف لنا خِصب القريحة العربيَّة، من أمثال (كليلة ودمنة، ورسـالة الغفران)، وكان مـن ضمن هذه الألوان القصصيَّة نوع يعتمد على القصص التاريخيّ، فيرسـم لنا الـراوي واقعةً تاريخيَّةً لكن ليس بأسـلوبِ السَّرد التاريخيّ، بل يقدِّم التاريخ بأسـلوب القصَّـة، وهـذا يقتضي منـه أن يحذف السَّـند، ولا يعبِّر عنـه، أو يعبِّر عنـه بقوله: (قال الراوي)؛ وذلك لأنَّه يدرك في قرارة نفسـه أنَّه يقـترب من نظام القصص أكثر من نظام السيرة أو التاريخ.

ويمثِّـل هذا الاتِّجاه -في تلك الحقبة الزمنيَّة- ما يعرف بكتب الطفِّ، وهي الكتب التـي تناولت قصة استشـهاد الإمام الحسـين عليه السلام في طـفِّ كربلاء، فهي تـروي حادثة تاريخيَّة لكن بأسـلوبٍ قصصيٍّ يتَّبع فيه القاصُّ سلسلة من الإجراءات الفنيَّة التي تجعله في متناول القارئ، فلا يصيبه الملل عند القراءة؛ لأنَّه يُقدَّم على شـكل قصَّة تعالج حدثًا

متسلسلًا تجمعه الحبكة القصصيَّة مع الأحداث الأخرى، ليصل للذَّروة، ثمَّ الحلِّ، فالنهاية.

وبما أنَّ هذه القصص تعتمد حدثًا تاريخيًّا في الأصل، ستجد القاص يلتزم بأماكنها وشخوصها من دون تغييرٍ يُذكَر، وإذا حاول التغيير، فإنَّه يحذف أو يختصر حدثًا غير مركزيّ في القصة؛ لذلك يكون دور الشخوص وحركيَّتهم خاضعة للنصِّ الأصليّ.

وفي قصص الطفِّ يبرز لنا (المكان) كعنصر سرديّ لا بدَّ من الوقوف عليه ودراسته؛ لأنَّ المكان فيها هو المحرِّك الأساسيّ لبناء الحدث القصصيّ، فالمدينة ومكَّة والكوفة والشام تتوزَّع فيها الأحداث بشكلٍ متسلسلٍ، وظهور الشخصيَّات التي تحرِّك عجلة السرد تابع لحركيَّة المكان، ثمَّ أن تكوّن الحبكة القصصيَّة فيها مبنيَّة على المكان وتقلُّباته في ذلك الوقت.

ولعلَّ من أشهر هذه القصص قصَّة كتبها رضيّ الدين ابن طاووس الحِلِّيّ (ت٦٦٤هـ) بعنوان (الملهوف على قتلى الطفوف)، وهي قصة متوازنة من حيث الحجم والأحداث المساقة في فصولها؛ لأنَّها- كما يحدِّد مؤلِّفها- كُتبت لزائري الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء؛ لذلك امتازت هذه النسخة من قصة الطفِّ بالرشاقة الكتابيَّة، إذ قدَّمت الحدث بشكلٍ معقول من دون أن تُراكِم الأحداث، فهدفه إعطاء ملخَّص عن الحدث الطفِّيّ للزَّائر ليس أكثر.

ولعلَّ انشغال الدراسة بالمكان تنطلق من كونه يحتلُ موقعًا مميَّزًا في هكذا قصص؛ لأنَّ الحبكة القصصيَّة مبنية على المكان وتقلُّباته في ذلك الوقت، الأمر الذي جعل المكان في هذه القصص هدفًا لدراستنا، فضلًا عن عدم تسليط الضوء على هذا النوع من

الكتب ذات الطابع النثريّ، وقد جاء البحث بعنوان (تحوُّلات المكان في قصص الطفِّ، الملهوف على قتلى الطفوف اختيارًا)، درست فيه المكان في ضوء التمظهرات الثقافيَّة السائدة في ذلك الوقت.

قسَّمت البحث على محاور عدَّة، وهي:

المحور الأوَّل: كتب الطفِّ (المفهوم).

المحور الثاني: مصطلح المكان (المفهوم، الأنواع).

المحور الثالث: التحوُّلات المكانيَّة في قصَّة الملهوف على قتلى الطفوف.

المحور الرابع: التحوُّلات المكانيَّة بين التنوُّع المجتمعيّ والنسق الفكريّ.

وقد تتبَّعت الأماكن وتحوُّلاتها في هذا الكتاب، فوجدت (تحوُّلًا) تمثَّل في المدينة ومكَّة وكربلاء، ووجدت (انقلابًا) تمثَّل في الكوفة؛ كونها لم تفِ بالعهود والمواثيق، وأخيرًا وجدت (ثباتًا) مثَّلته الشام وقصرها الأمويّ، لكن البحث في المحرِّكات الثقافيَّة تركَّز على الكوفة، كونها لم تفِ بالمواثيق والعهود التي قطعتها للإمام الحسين عليه السلام، بل انقلبت ضدَّه! وهنا يبرز محرِّك ثقافيّ يربط جميع الأحداث، ويرتِّبها كيفما يشاء.

وبعد عرض المادَّة، ومناقشة التحوُّلات، وبيان أشكالها ومحرِّكاتها الثقافيَّة، توصلت إلى نتائج ختمت بها البحث، ثمَّ أردفتها بالمصادر والمراجع المعتمَد عليها في هذا البحث.

المحور الأوَّل

كُتب الطَّفِّ (المفهوم)

حـين نطالع معاجم اللغـة العربيَّة حول مـادَّة (الطَّفّ) نجدها مشـتقَّة من الفعل (طَفَـفَ)، تقول: خُـذ ما طفَّ لك واسـتطفَّ، أي ما دنا وأمكن، وطَـفُّ الفراتِ: أي الشـاطيء، وهو مَا أَشْرَفَ مـن أَرْضِ العَرَبِ على رِيفِ العِراقِ، وقـالَ الأَصْمَعِيُّ: إِنَّما سُمِّيَ طَفًّا؛ لأَنَّه دَنَا من الرِّيفِ»[1].

والطَّفُّ: أرض من ضاحية الكوفة في طريق البريَّة، كان مقتل الحسـين بن عليّ عليه السلام فيها، وهي أرض بادية قريبة من الريف، فيها عيون ماءٍ جارية[2].

ترتبـط هذه التسـمية بقصَّـة استشـهاد الإمام الحسـين عليه السلام وأصحابـه في الواقعة المشـهورة بطفِّ كربـلاء، بل تكاد شـهرة كربلاء أو الطَّـفِّ- كمكان تاريخـيّ- متأتِّية مـن هذه الحادثة؛ ولِعِظَم ما حدث آنذاك، أقبل عدد وافـرٌ من الكتَّاب؛ ليؤلِّفوا في هذه الحادثـة، ولعلَّ أقدمهـم كتاب أبي مِخنف (١٥٧ هـ) بعنوان (وقعة الطَّـفّ)، أو (مقتل الحسـين)، ثمَّ توالت الكتب في هـذا الميدان لتصل إلى أكثر مـن مئتي كتاب[3]، سردت القصة التاريخيَّة لاستشهاد الإمام الحسين عليه السلام، معتمدةً أسلوب (السرد التابع/ المتتابع)،

(١) تاج العروس: ٢٤/ ٩٢.

(٢) ينظر: معجم البلدان: ٤/ ٣٥.

(٣) ينظر: الفهرسـت: ١١١، الوافي بالوفيات: ٤/ ٤٣٥، الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ٢٢/ ٢٤- ٢٨.

وهو نسق بنائيّ عُمل به منذ زمن طويل، وقد هيمن مدَّة طويلة على فنِّ القصِّ بمختلف أجناسه، إذ تُقدَّم الأحداث للسَّامع بترتيب وقوعها، أي سردها بحسب ترتيبها الزَّمني، ويتمُّ في هذا اللَّون من الأنساق السرديَّة رواية أحداث القصَّة جزءًا بعد جزء، دون أنْ تتداخل أحداثها مع أيَّة قصة أخرى، وهو على ذلك من أكثر الأنساق شيوعًا وبساطةً، إذ يسعى فيه الرَّاوي إلى سرد الأحداث بشكلٍ خطِّيٍّ متسلسل، يخضع فيه بناء الحدث «لمنطق السَّببيَّة، فالسَّابق يكون سببًا للاحق، ويظلُّ الرِّوائي ينسج حبكة النَّصِّ صاعدًا إلى الأمام بشكلٍ أفقيٍّ خطِّيّ، فيتأزَّم المتن الحكائيّ في لحظةٍ ما- هي الذَّروة- ثمَّ تنفرج في نهايةٍ يغلق فيها الرَّاوي النَّصَّ»[1].

وهو من أبسط أنواع السَّرد- مقارنةٍ بأنماط السَّرد الأخرى- إذ يقوم الراوي فيه برواية أحداثٍ وقعت في الماضي، معتمدًا في ذلك على صيغ الزَّمن الماضي، ويسمَّى هذا النوع سردًا تقليديًّا، حيث يتواجد بكثرة في الحكايات الشعبيَّة، والروايات الكلاسيكيَّة[2].

وفي هذه الكتب يظهر لدينا راويان، الأوَّل هو ناقل الخبر الأصليّ (المسمَّى بالسند)، وقد يتعدَّد ليصل إلى أكثر من ناقل للخبر، والثاني هو الراوي الذي يصيغ هذه الأخبار، ويجمعها في قالب مترابط، تغلب عليه المسحة الفكريَّة والأدبيَّة، بما يتناسب مع الحادثة التي يحكيها الكتاب، ويظهر الرواي في هذه الكتب مسيطرًا على الأحداث، يحرِّكها حسب رؤيته للحدث العام، فهو راوٍ عليم موضوعيّ، يصطنع الحبكة القصصيَّة وفاقًا لرؤيته، لكن لا يعني ذلك خروجه عن المعطيات التاريخيَّة التي هي الأساس المعتمد عليه في قصَّته.

(١) ينظر: البناء الفنِّي في الرواية العربيَّة في العراق: ١/ ١٣.
(٢) ينظر: مدخل إلى نظريَّة القصَّة (تحليلًا وتطبيقًا): ٩٧، معجم مصطلحات السرد: ٦٢.

ومـن أهمِّ الكتب التي سـلَّطت الضوء على هذه الحادثـة كتاب (الملهوف على قتلى الطفوف) لابن طاووس الحِلِّيّ [1] المتوفَّى سـنة (٦٦٤هـ)، سعى فيه المؤلِّف إلى تعريف المسـافرين والزائرين إلى الإمام الحسـين عليه السلام بقصَّة استشـهاده، إذ يقـول: «إنَّ من أجلِّ البواعث لنا على سـلوك هـذا الكتاب، أنَّني لـمَّا جمعت كتاب (مصبـاح الزائر وجناح المسـافر)، ورأيته قد احتوى على أقطار محاسـن الزيارات، ومختار أعمال تلك الأوقات، فحاملُه مسـتغنٍ عن نقل مصباحٍ لذلك الوقت الشـريف، أو حمل مزارٍ كبيرٍ أو لطيف، أحببـت أيضًـا أن يكون حامله مسـتغنيًا عـن نقل مقتلٍ في زيارة عاشـوراء إلى مشـهد الحسـين عليه السلام، فوضعت هذا الكتاب ليُضمَّ إليه، وقد جمعت هاهنا ما يصلح لضيق وقت الـزوَّار، وعدلت عن الإطالة والإكثار، وفيه غنية لفتح أبواب الأشـجان، وبُغية لنجح أربـاب الإيمان، فإنَّنا وضعنا في أجسـاد مغناه روح ما يليق بمعنـاه، وقد ترجمته بكتاب اللُّهوف على قتلى الطفوف»[2].

لهذا ابتعد عن التفصيل والإطناب، مكتفيًا بمعالجة القضايا المهمَّة في واقعة الطَّفِّ، فحذف المكرَّرات والروايات المتفرِّقة، وللهدف نفسه قام بحذف أسانيد الروايات التي

(١) هو السيِّد رضيّ الدين أبو القاسم عليّ بن موسى بن جعفر بن طاووس الحسنيّ، من ذراري الإمام الحسن بن عليّ المجتبى عليه السلام، والإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام، ولد بالحلة في العراق في (١٥ محرَّم ٥٨٩ هـ)، سـكن كلًّا من الحِلَّة وبغداد (١٥ سـنة)، وكربلاء المقدَّسـة ومشهد الإمام عليّ بن موسى الرِّضا عليه السلام بخراسان (٣ سنوات).
عالم جليل، وفقيه كبير من فقهاء الشـيعة الإماميَّة، لمع في شـعره وأدبـه، ويُعرف بزهده وتقواه، لـه ما يقارب الخمسـين مؤلَّفًا، أكثرهـا في الأدعية والزيـارات، منها: (مهـج الدعوات ومنهج العبادات، فلاح السـائل ونجاح المسـائل، والملهوف على قتلى الطفوف)، توفي رحمه الله سنة (٦٦٤هـ) ببغـداد وعمـره (٧٥) عامًا، ونُقل جثمانـه إلى النجف الأشرف، ودُفن بجـوار مرقد الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام. ينظر: أمل الآمل: ٢/ ٢٠٥، الأعلام: ٥/ ٢٦.
(٢) الملهوف على قتلى الطفوف: ٨٦-٨٧.

أوردها في الكتاب، مكتفيًا بقولة: «قال الراوي» أحيانًا، الأمر الذي أضفى النزعة القصصيَّة عليه بدلًا من النزعة التاريخيَّة.

وقد قسَّم الكتاب إلى مقدِّمة وثلاثة مسالك، تكفَّلت بعرض أفكاره ورؤيته إزاء واقعة الطَّفِّ، وحسبما يأتي:

- **مقدِّمة**: تحدَّث فيها عن الإمام الحسين عليه السلام، ومنزلته، وثواب الاعتراف بحقِّه، والبكاء عليه، ثمَّ انتقل إلى المسالك[1].
- **المسلك الأوَّل**: تعرَّض فيه للوقائع والأحداث التي جرت قبل واقعة الطَّفِّ، من ولادة الإمام الحسين عليه السلام وحتَّى يوم العاشر من المحرَّم.
- **المسلك الثاني**: ذكر فيه وقائع يوم العاشر من المحرَّم، وحتَّى استشهاد الإمام الحسين عليه السلام.
- **المسلك الثالث**: بحث فيه ما وقع بعد انتهاء المعركة من إرسال رؤوس الشهداء إلى الكوفة، وسَوْقِ عائلة الحسين عليه السلام أسارى إلى يزيد في الشام، ومن الشام إلى المدينة.

ومن الجدير بالذكر أنَّ هذا النوع من الكتب لم يسلَّط عليه الضوء من ناحية فنيَّة أو أدبيَّة؛ ولعلَّ السبب في ذلك أنَّ الحدث فيه تاريخيّ، لكنَّ الممعن النظر فيه سيجده نصًّا نثريًّا كغيره من النصوص النثريَّة الفنيَّة، لكنَّه يعتمد على قصَّة تاريخيَّة؛ لذلك يجب دراسة هكذا كتب، وتسليط الضوء عليها؛ لأنَّها تمثِّل نوعًا نثريًّا مهمًّا، حبكته تتناول حدثًا إسلاميًّا في غاية الأهميَّة.

(١) ينظر: الملهوف على قتلى الطفوف: ٨١، ٩٠، ١٤٥، ١٩٠.

المحور الثاني

مصطلح المكان

المكان هـو الوعاء الذي يحتضن الأحداث والشـخصيَّات داخل البنية القصصيَّة، وفيـه تدور عجلة السرد التي لا تتوقَّف إلَّا بنهايـة القصة المحكيَّة، وبذلك احتلَّ مكانة بـارزة في الدرس النقديّ الـسرديّ، فضلًا عن أهميَّته في الحيـاة الواقعيَّة، فهو جزءٌ مهمٌّ منها، تتحرَّك الأحداث فيه وتتنامى. وقد أدرك الإنسـان منذ القِدَم أهميَّة المكان، ودوره المتميِّـز، وعلاقاتـه بالعناصر الحياتيَّـة، وعلى هذا الأسـاس أخذت فكرة المـكان دورًا أساسيًّا في الفكر الإنسانيّ قديمًا وحديثًا، وتطوَّرت هذه الفكرة مع تطوُّر الفكر البشريّ في تعامله مع العالم الخارجيّ الذي يحيط بها؛ لذلك يمكن تعريفه على أنَّه:

- **الكيـان الاجتماعيّ** الـذي يحتوي على خلاصـة التفاعل بين الإنسـان ومجتمعه، لذا فشـأنه شـأن أيِّ نتاجٍ اجتماعيٍّ آخر، يحمل جـزءًا من أخلاقيَّة سـاكنيه، وأفكارهم ووعيهم، وهو شـخصيَّة متماسكة، ومسافة مَقيسـة بالكلمات، ورواية لأشياء غائرة في الـذات الاجتماعيَّة. إنَّه ليس غطـاءً خارجيًّا أو ثانويًّا، بل هو الوعـاء الذي تزداد قيمته كلَّـما كان متداخلًا في العمل الفنيّ[1]. والمكان يكون على مسـتوَيَين، هما: **المكان الإطار** (كالأرض، الأشـجار، الوهـاد الترابيَّة والمائية، والظلال، والضـوء...)، وهو يخلو من البُعـد التاريخيّ للأحداث، **والمكان الفعل** (الـذي يمثِّل مركز الحدث، وعين الصورة)،

(١) ينظر: الرواية والمكان: ١٦، ١٧.

ومنه تستمدُّ الشخصيَّات هويَّتها، وإليه تسعى من خلال فعل القصِّ؛ لتستقرَّ فيه، فهو مكان تجتمع فيه الظلمة والأسرار، وتبوح الشخصيَّة فيه؛ فتُخاطب نفسها، أو ترتكب فعلًا ما[1].

- **مجموعة الأشياء المتجانسة** (من الظواهر والحالات أو الوظائف أو الأشكال المتغيِّرة... الخ)، تقوم بينها علاقات شبيهة بالعلاقات المكانيَّة المألوفة العاديَّة، مثل (الاتِّصال والمسافة... إلخ)[2]، وهو مفهوم لا يقتصر على المكان الجغرافيّ، وإنَّما يتعدَّاه إلى الأشياء التي تقوم بينها علاقات مكانيَّة[3].

إنَّ المكان بوصفه عنصرًا مهمًّا في العمليَّة النقديَّة، يجمع بين ما هو مادِّيّ مَقِيس بالملاحظة والتقويم، وبين ما هو معنويّ خفيّ عن العيان، من علاقات تنشأ بين الأشياء نفسها، وبينها وبين إدراك الإنسان لها، وفكِّ تنظيمها من أجل معرفة خصائصها وصفاتها، للوصول إلى فهم أعمق لحقيقة الحياة الإنسانيَّة[4].

وعلى القاص أن يجيد اختيار المكان ونوعه، ولا تتوقَّف العمليَّة عند الاختيار، بل يجب أن يتَّبعها القاص بإجادة استغلال المكان الذي اختاره للعمليَّة الإبداعيَّة، إذ يجعل منه «شخصيَّة متماسكة، ومسافة مقاسة بالكلمات، ورواية لأمور غائرة في الذات الاجتماعيَّة، وبذلك لا يصبح غطاءً خارجيًّا، أو شيئًا ثانويًّا، بل هو الوعاء الذي تزداد قيمته كلَّما كان متداخلًا في العمل الفنِّيّ...»[5].

(١) ينظر: إشكاليَّة المكان في النصِّ الأدبيّ: ٢٢٢.
(٢) ينظر: بلاغة المكان (قراءة في مكانة النصِّ الشعريّ): ٢١.
(٣) ينظر: المكان ودلالاته في رواية مدن الملح: ٤٠.
(٤) ينظر: المكان في شعر الحرب: ٨.
(٥) الرواية والمكان: ١٧.

وعلى أساس هذا الدور الكبير الذي يؤدِّيه المكان، دأب النقَّاد على تقسيم المكان إلى أنواع عديدة، واختلفوا في تحديد مسمَّيات هذه الأنواع، فقد استنتج (بروب)[1] ثلاثة أنماط من خلال دراسته للقصص، وهي:

١. **المكان الأصل**: وهو عادةً مسقط الرأس، والمكان الذي تسكن فيه العائلة، وأطلق عليه (غريماس) اسم (مكان الأنس الحاف).

٢. **المكان الذي يحدث فيه الاختيار الترشيحي**: وهو مكان عرضيّ وقتيّ، وقد سمَّاه (غريماس) بـ(المكان الترشيحيّ الحاف).

٣. **المكان الذي يقع فيه الإنجاز أو الاختيار الرئيسيّ**: وأطلق عليه غريماس (اللامكان).

في حين حدَّد (مول و رمير) أربعة أنواع من المكان حسب السلطة التي تخضع لها وهي: «أماكن خاضعة للسلطة، مكان يشبه الأوَّل في نواحٍ عديدة؛ لكنَّه يخضع لسلطة الغير، ويجب الاعتراف بها، أماكن غير خاضعة للسلطة، أماكن عامَّة لا سلطة فيها غير مهمة لأحد»[2].

وهناك أيضًا من يُقسِّم المكان إلى أماكن مغلقة، وأماكن مفتوحة، فالأماكن المغلقة (السجن، المستشفى، البيت، المسجد)، والأماكن المفتوحة (الحي، القرية، المدينة)، وغيرها، وأماكن مفترضة، وهي الأماكن المخيلَّة فقط [3]، وأيضًا قُسِّم إلى أماكن جاذبة، وطاردة، وتاريخيَّة [4].

(١) ينظر: مدخل إلى نظريَّة القصَّة: ٥٧-٥٩.
(٢) ينظر: مشكلة المكان الفنِّيّ: ٨١-٨٢.
(٣) ينظر: إشكاليَّة المكان في النصِّ الأدبيّ: ٢٢٢، وما بعدها.
(٤) ينظر: غائب طعمة فرمان روائيًّا: ١٦٠، ١٧٢، ١٧٦.

والمكان الذي نحن بصدد دراسته يدخل ضمن الأماكن التاريخيَّة ذات الصبغة الدينيَّة، فهو يرتبط بشخصيَّة إسلاميَّة لعبت دورًا مهمًّا في التاريخ الإسلاميّ، إن لم تكن الأهم، وقد ارتبط المكان بحركة هذه الشخصيَّة من لحظة خروجها من المدينة المنوَّرة، وصولًا إلى منطقة الطَّفِّ (كربلاء حاليًّا).

وعمومًا، تخضع الأماكن التاريخيَّة لخطاب الأقوى، ويتَّخذ هذا الخطاب وسائل متعدِّدة للسيطرة على المكان، تارةً باستغلال الثقافة، وما يتفرَّع منها من معطيات فكريَّة تلبِّي طموح السلطة، وتارةً يستعمل القوَّة لإخضاعه وتنميطه بما يتلاءم مع أفكارها، وتارةً أخرى يجمع بين الوسيلتَين التي يقف خلفهما محرِّك ثقافي (نسق)، تسعى هذه القوى إلى تمريره بهذه الوسائل، سواء بطريقة مضمرة، أو ظاهرة، فيتحوَّل المكان إلى ماهيَّة مختلفة جرَّاء هذه القيم الثقافيَّة المُحَرِّكة.

المحور الثالث

تحوُّلات المكان في قصص الطَّفِّ (الملهوف على قتلى الطفوف) اختيارًا

هـل يوجد مؤلَّف أو كتـاب يمكن أن يصف لنا علاقة المكان بالإنسـان على وجه الدقَّة؟ سـيكون الجواب: أبدًا، فمن الصعوبة أو الاستحالة أن يحوي كتاب على وصف دقيق لهذه العلاقة؛ لأنَّها ببسـاطة تتعلَّق بأحاسـيس الإنسـان وذكرياتـه وحياته اليوميَّة المبنيَّـة عـلى الأماكن التـي يرتادها كلَّ يـوم، فتتكوَّن تلك المشـاعر الموجَبة أو السـالبة تجاه المكان متحوِّلة حسـب الوضع (الاجتماعي، السـياسيّ، الدينيّ...)، فالأمر متعلِّق بالمعطيات الحياتيَّة البحتة للحياة الإنسانيَّة.

وانطلاقًـا مـن ذلك، يعدُّ المكان ركنًا رئيسًـا في حياتنا اليوميَّة، فمنـه ننطلق، وإليه نعود، وقد أدرك المبدعون ذلـك، فضمَّنوا إبداعاتهم أماكن تخدم العمل الفنِّيّ، مراعين التحـوُّلات التي تحدث أثناء تكـوُّن الأحـداث، وبلوغها الـذروة القصصيَّة، وصولًا لنهايتهـا، في كلِّ ذلـك يظهر المكان كشـخصيَّة متماسـكة، ومسـافة مُقاسـة بالكلمات، وروايـة لأمـور غائرة في الـذات الاجتماعيَّة؛ لـذا لا يمكن القول بأنَّ المـكان في العمل الإبداعـيّ ثانوي الأثر، بل هو وعاء حاضـن للأحداث، تزداد قيمته كلَّما تداخل معها، وأثَّر فيها، وأثَّرت فيه، مغيِّرة في معطياته السرديَّة، وبعكس ذلك يكون المكان مجرَّدًا من معناه الفلسفيّ والفكريّ المراد له من قبل النقَّاد والمبدعين[1].

(١) ينظر: الرواية والمكان: ١٧.

وهذا التأثُّر والتأثير يجعل العلاقة جدليَّة بين الإنسان والمكان؛ لأنَّه يرتبط بالإدراك الحسِّيّ أو التصوُّر الذهنيّ للإنسان، فهو حاضن للوجود، وشرطه الرئيس الذي لا يتجزَّأ عنه في حركته وسكونه، ومن دون المكان لا يمكن أن تتجسَّد العناصر الحياتيَّة الأخرى في العمل الفنِّيّ، وأبرزها الزمان الذي يشترك مع المكان في تقرير حقيقة الوجود الإنسانيّ[1].

وبذلك يصبح المكان محفِّزًا أكثر من كونه عنصرًا فنيًّا، فهو يكتب القصَّة قبل أن تسطِّرها يد المؤلِّف[2]؛ لأنَّه يؤسِّس الحكي، ويصبغ الأحداث المتخيَّلة بصبغة العالم الواقعيّ، فتتعدَّد الأماكن، وتتنوَّع الأشكال داخل المكان الواحد، الأمر الذي يساعد لاحقًا في قراءة الحالة النفسيَّة للمبدع من خلال حالة التأثُّر والتأثير بينهما[3].

وعلى مدار العقود الماضية، ظهرت لنا قصص وروايات اعتمدت كليًّا على المكان ودوره في تنامي الأحداث، ولاسيما قصص أو روايات الحروب، أو القصص ذات الحدث التاريخيّ (الواقعيّ)، أي التي تُكتب عن قصَّة حدثت في الماضي، فيكون المكان محفِّزًا ثقافيًّا وسرديًّا، يعطي النصَّ عمقًا تاريخيًّا يجعله أقرب إلى السرد التاريخيّ، لكنَّه لا يخرج عن أنماط السرد في الكتابة النثريَّة.

ومن أهمِّ الكتب التي تناولت حدثًا تاريخيًّا بصورة قصصيَّة، هو كتاب (الملهوف على قتلى الطفوف) للسيِّد عليّ بن موسى بن طاووس (ت ٦٦٤هـ)، إذ يروي لنا قصَّة الطَّفِّ، قصَّة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء، والحادثة مشهورة لا داعي إلى شرحها أو بيان تفاصيلها، لكن ترتكز الحادثة على مكان تاريخيّ، ألا وهو كربلاء،

(١) ينظر: جماليَّات المكان في الشعر الجاهليّ (المعلَّقات أنموذجًا): ٣٨.
(٢) ينظر: بنية النصِّ السرديّ من منظور النقد الأدبيّ: ٦٥.
(٣) ينظر: بنية الشكل الروائيّ: ٣٠.

فضـلًا عن بقيَّة الأماكن التي تتعلَّق برحلـة الطَّفِّ، والذي يميِّز هذا المكان، هو أنَّه ذُكِر قبل وقوع الحادثة في المرويَّات التي نُقلت على لسـان الرسول صلى الله عليه وآله، فيقول ابن طاووس: «لـمَّا أتمَّ الحسين عليه السلام سنتَين من مولده، خرج النبيّ صلى الله عليه وآله في سفر، فوقف في بعض الطريق، فاسـترجع ودمعت عيناه، فسُـئِل عن ذلك، فقال: **هذا جبريل يخبرني عن أرضٍ بشـطِّ الفرات، يُقال لها: كربلاء، يُقتَل بها ولدي الحسين بن فاطمة...**»[1].

فالمـكان هنا هو جزء كبير من الحدث، بل هو يحـرِّك الحادثة الكبرى، وهي القافلة الحسـينيَّة التي خرجت من المدينة، ووصلت إلى كربلاء في العاشر من شـهر محرَّم لسـنة (٦١هـ).

إنَّ المكان في قصص الطَّفِّ يختلف من حيث الموضوع والهدف عن المكان القصصيّ المعتاد لدى القارئ، وذلك من أوجه عدَّه، فهو أوَّلًا مكانٌ واقعيّ له خلفيَّة تاريخيَّة تذكرها المصادر[2]، فتكشـف لنا أبعاده وشـكله، فهو مكان قابع في الخلفيَّـة التاريخيَّة للمتلقِّي، وثانيًا هو مكان مقدَّس قديمًا وحديثًا[3]، ثم تحوَّل إلى قبلة لمحبِّي آل الرسول صلى الله عليه وآله، وذلك كفيل بتحويل المكان في قصتَّنا هذه إلى شـخصيَّة رئيسة، تمتاز بالإيجابيَّة، أي إنَّها تشارك في تحويل مسار الأحداث وتغييرها، وليست شخصيَّة سلبيَّة أو ثانويَّة في الحكي، بل هي تقود زمام البنية السرديَّة؛ لأنَّ الحدث متعلِّق بها، ولا وجود له من دونها.

ويضـاف إلى ذلـك تنوُّع المـكان في قصَّة (الملهوف عـلى قتلى الطفـوف)، إذ تتغيَّر الأمكنة، وتتغيَّر معها الأحداث حسـب مراحل الرحلة، فتتحوَّل الأماكن من المفتوحة

(١) الملهوف على قتلى الطفوف: ٩٣.

(٢) ينظـر في الـكلام عن كربلاء وخلفيَّتها التاريخيَّة: سـير أعلام النبـلاء: ٣/ ٢٨٩، تاريخ بغداد: ١/ ١٥١.

(٣) ينظر: مختصر نهضة الحسين: ١٧٨.

إلى المغلقة، ومن الجاذبة إلى الطاردة، ومن خضوعها للسلطة إلى التمرُّد عليها، والأمر هنا ليس بالفعل، بل بالدلالة الذهنيَّة، فالأماكن جميعها مفتوحة أو مغلقة، لكن الحدث (السلبيّ أو الإيجابيّ تجاه آل الرسول صلى الله عليه وآله)، يحوِّلها دلاليًّا لتتغيَّر هذه الأماكن حسب الحدث الذي يصيب القافلة الحسينيَّة.

إنَّ النصَّ الذي نحن بصدده يرشح نوعَين من الأماكن، يمكن تقسيمها إلى قسمَين، وهما: الأماكن المتحوِّلة، والأماكن الثابتة، وبيانها فيما يأتي:

أوَّلًا: الأماكن المتحوِّلة

نقصد بالأماكن المتحوِّلة تلك الأماكن التي تغيَّر موقفها بالنسبة للثورة الحسينيَّة بعد أن كانت مناصرة له، أو على أقلِّ تقدير لا تقف بالضدِّ منه، وقد احتلَّت هذه الأماكن في نصِّنا النثريّ حيِّزًا كبيرًا؛ إذ إنَّ معظم الأماكن التي سلكها الإمام الحسين عليه السلام قد تحوَّلت من حالٍ إلى حال، وذلك بفعل عوامل ومُعطيات حدثت على أرض الواقع، سنبيِّنها تباعًا.

تمثِّل (المدينة، مكَّة، الكوفة، كربلاء) المكان المتحوِّل في كتاب (الملهوف على قتلى الطفوف)؛ نتيجة تناقض المواقف، وعدم التزام أهلها بالاتِّفاقات والوعود، إذ تحوَّلت مدينة الرسول صلى الله عليه وآله من مكانٍ إيجابيّ (مفتوح) إلى مكانٍ سلبيّ (طارد، مغلق) بالنسبة لآل الرسول صلى الله عليه وآله، وتبدأ معطيات التحوُّل في المدينة المنوَّرة عند وصول خبر موت معاوية إلى والي المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وتولِّي يزيد الخلافة في الشام عام (٦٠هـ)، إذ طلب يزيد من واليه على المدينة أن يأخذ البيعة من الحسين عليه السلام، ويقول له: «إنْ أبى عليك فاضرب عنقه، وابعث إليَّ برأسه»[1]، ثمَّ تزداد عدائيَّة المكان، عندما يرسل الوليد

(١) الملهوف على قتلى الطفوف: ٩٧.

ابن عتبة في طلب مروان بن الحكم؛ لأجل مشورته في رسالة يزيد له، فيوجِّهه مروان بضرورة اتِّباع تعليمات الشام بحذافيرها، بل ويصطدم مع الحسين عليه السلام، ويُطالب الوليد بضرب عنق الحسين عليه السلام، فيقول لهم الإمام: «**ويلي عليك يابن الزرقاء، أنت تأمر بضرب عنقي! كذبت والله ولؤمت**»(١). ثمَّ تدور الأحداث، وتتأزَّم المواقف، وتحدث مشادات كلاميَّة وحجاجيَّة بين الحسين عليه السلام وأتباع يزيد، الذين دأبوا على مضايقة الإمام في المدينة، الأمر الذي دفعه إلى رفض البيعة، بقوله للوليد بن عتبة: «**أيُّها الأمير إنَّا أهل بيت النبوَّة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة، وبنا فتح الله، وبنا ختم الله، ويزيد رجلٌ فاسق شارب الخمر، قاتل النفس المحرَّمة، مُعلِن بالفسق، ليس له هذه المنزلة، ومثلي لا يبايع مثله، ولكن نُصبح وتُصبحون، وننظر وتنظرون أيُّنا أحقُّ بالخلافة والبيعة**»(٢).

وهنا كان لا بدَّ من مغادرة المدينة جرَّاء التهديد الفعليّ من السلطة، فتوجَّه الإمام عليه السلام إلى مكَّة، التي بقي فيها أربعة أشهر، وهنَّ الأشهر الحُرم، والتي أصبحت مكانًا جاذبًا آمنًا للحسين وآله عليهم السلام، لكن هذا المكان سرعان ما تغيَّر، وأصبح سلبيًّا طاردًا؛ فيغادره الحسين عليه السلام خوفًا من غدر يزيد، إذ يقول، عندما طلب منه محمَّد بن الحنفيَّة البقاء في مكَّة، مبيِّنًا له غدر أهل الكوفة، وعدم وفائهم: «**يا أخي خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية بالحرم، فأكون الذي يُستباح به حرمة هذه البيت**»(٣).

وهكذا تحوَّلت مكَّة التي كانت تحت ولاية الأمويِّين إلى مكان غير آمن بالنسبة لآل الرسول صلى الله عليه وآله، فتحرَّك الركب باتِّجاه العراق، معتمدًا على الرسائل والوعود التي كتبتها عشائر الكوفة وقبائلها.

(١) الملهوف على قتلى الطفوف: ٩٨.
(٢) المصدر نفسه: ٩٨.
(٣) المصدر نفسه: ١١١.

في الكوفة تختلف آليَّة التحوُّل عن المدينة ومكَّة، إذ إنَّ التحوُّل بالضديَّة والانغلاق في هذه الأماكن لم يكن قويًّا بشكلٍ كبير؛ لأنَّ عامَّة الناس، أو قسمًا لا بأس به، يصرخ بالضدِّ من الأمويِّين، وهذا لا يعني أنَّهم يؤيِّدون الحسين عليه السلام، لكنَّهم بالوقت نفسه يرفضون يزيد بن معاوية؛ لما عُرف عنه من الفسق والفجور وانتهاك الحرمات، لذلك عدائيَّة المكان (تحوُّله) في المدينة ومكَّة لم يكن كعدائيَّته في الكوفة، فنلاحظ أنَّ والي المدينة الوليد بن عتبة يرفض طلب مروان بن الحكم عندما أشار عليه بضرب عنق الحسين عليه السلام، فعندما ورد أمر يزيد لواليه على المدينة بخصوص خروج الموكب الحسينيّ إلى الكوفة، استشار مروان بن الحكم، فقال له: عليك بضرب عنق الحسين عليه السلام، فأجابه الوالي: «يا ليتني لم أكُ شيئًا مذكورًا»[1].

وفي موضع آخر من قصة (الملهوف على قتلى الطفوف) يقول لمروان: «ويحك يا مروان إنَّك أشرت عليَّ بذهاب ديني ودنياي، والله ما أحبّ أنَّ ملك الدنيا بأسرها لي وأنَّني قتلت حسينا، والله ما أظنُّ أحدًا يلقى الله بدم الحسين إلَّا وهو خفيف الميزان، ولا ينظر إليه الله يوم القيامة، ولا يزكِّيه، وله عذاب أليم»[2].

إذًا لم يكن الجوّ العام في (المدينة ومكَّة) مع الدولة الأمويَّة، فرفض هذه الدولة وتحوِّل المكان لمعادٍ لها لم يكن شيئًا طيَّ الكتمان، أو غير شائع، حتَّى أنَّ الحسين عليه السلام جاء مع عصبة قرابة (٣٠) رجلًا عندما طلبه الوالي لبيعة يزيد، والحوار كان محتدًّا جدًّا بينهم، فالممانعة كانت واضحة، وتحوَّلت هذه المدن إلى أماكن معادية للدولة الأمويَّة، لكن العداء في القلوب والنفوس، وليس بالأيدي والسيوف. ينقل لنا ابن طاووس نصًّا جاء على لسان الإمام، يوضِّح الصورة السابقة، فيقول: «**أيُّها الأمير إنَّا أهل بيت النبوَّة،**

(١) الملهوف على قتلى الطفوف: ٩٧.
(٢) المصدر نفسه: ٩٨.

ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، وبنا فتح الله، وبنا ختم الله، ويزيد رجلٌ فاسق شارب الخمر، قاتل النَّفس المحرَّمة، معلن بالفسق، ليس له هذه المنزلة، ومثلي لا يبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون أيّنا أحقُّ بالخلافة والبيعة»[1].

وعلى أساس ذلك، لم يكن التحوُّل كبيرًا في هذه الأماكن، وهي لم تُرسل الرسائل وتقطع الوعود، مثلما حدث في الكوفة، التي مثَّلت تحوُّلًا حادًّا في الماهيَّة المكانيَّة لها، عندما غيَّرت موقفها، ونقضت الوعود المقطوعة من قبلها تجاه الحركة الحسينيَّة آنذاك.

فعندما سمع أهل الكوفة بمعارضة الحسين عليه السلام لخلافة يزيد، اجتمعوا وأرسلوا الرُّسل والرسائل التي تَعِدُ ببذل المال والسلاح والرجال في سبيل الإمام الحسين عليه السلام، يقول ابن طاووس مبيِّنًا ذلك: «فاجتمعوا في منزل سليمان بن الصرد الخزاعيّ... فكتبوا إليه، بسم الله الرحمن الرحيم: إلى الحسين بن عليّ أمير المؤمنين عليه السلام من سليمان ابن الصرد الخزاعيّ والمسيَّب بن نجبة ورفاعة بن شدَّاد وحبيب بن مظاهر... وسائر شيعة أمير المؤمنين، سلام الله عليك... إنَّه ليس علينا إمامٌ غيرك، فأقبِل لعلَّ الله يجمعنا بك على الحقِّ، والنعمان بن بشير في قصر الإمارة، ولسنا نجتمع معه في جمعة ولا جماعة، ولا نخرج معه إلى عيد، ولو بلغنا أنَّك أقبلت أخرجناه حتَّى يلحق بالشام، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته يابن رسول الله، وعلى أبيك من قبل، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم»[2]، ثمَّ سرَّحوا الكتاب، ولبثوا يومين آخرين، وأنفذوا جماعة معهم نحو مائة وخمسين صحيفة يسألونه القدوم عليهم[3].

(١) الملهوف على قتلى الطفوف: ٩٨.
(٢) المصدر نفسه: ١٠٣.
(٣) المصدر نفسه: ١٠٥.

فنلاحظ أنَّ الكوفة مكان إيجابيّ الدلالة، مفتوح الأفق، متمرِّد على السلطة، ثائر عليها، وهذا الجوُّ عمومًا ملائم لتطلُّعات الإمام الحسين عليه السلام.

ويستمر ابن طاووس في بيان تشكلات المكان في الكوفة بناءً على مواقف أهلها، فيقول: «اجتمع لديه في نُوب مختلفة اثنى عشر ألف كتاب»[1]، فالكوفة مرَّت بمرحلَتين تجاه المكان:

المرحلة الأولى: مثَّلت المكان المتمرِّد على السلطة.

والأخرى: مثَّلت المكان الموافق للسلطة، المعادي للثورة الحسينيَّة، ثمَّ عادت لاحقًا لتكون مكانًا مؤيِّدًا للفكر الحسينيّ، ومتمرِّدًا على السلطة الأمويَّة، لكن خارج حقبة قصَّة الملهوف لابن طاووس.

لكن السؤال هنا: ما الذي حدث حتَّى تحوَّلت الكوفة إلى مكانٍ معادٍ، خاضعٍ للسلطة، ناقضٍ للعهودِ والمواثيق؟.

يكمن الجواب على هذا السؤال في الأحداث التي رافقت الثورة الحسينيَّة، فالدولة الأمويَّة، في ضوء القصص التي تروي قصة الطَّفِّ، كانت تتحسَّس الأوضاع، وتستعد لها عن طريق الترهيب تارةً، وعن طريق الترغيب تارةً أخرى، وبذلك أوجدت أعوانًا لها بين الشيوخ والقبائل وعامَّة الناس، فبمجرَّد سماع بعض أهل الكوفة بأمر مسلم بن عقيل، «كتب جمع من أهل الكوفة، وهم عبد الله بن مسلم الباهليّ، وعمارة بن الوليد، وعمر بن سعد، إلى يزيد يخبرونه بأمر مسلم بن عقيل، ويشيرون عليه بصرف النعمان ابن البشير وولاية غيره... فكتب يزيد إلى عبيد الله بن زياد، واليه على البصرة، بأنَّه ولَّاه على الكوفة، وعرَّفه بأمر الحسين ومسلم بن عقيل عليهما السلام، وشدَّد عليه في تحصيل مسلم

(١) الملهوف على قتلى الطفوف: ١٠٥.

وقتله، فسار إلى الكوفة»[1].

هنا كان التحوُّل، فعلى الرغم من كونه عن لم يصدر من أناس راسلوا الإمام الحسين عليه السلام- أو جزء كبير منهم لم يراسله- لكن التحوُّل الأخطر سيحدث من أناس راسلوا الإمام، لكنَّهم انقلبوا ضدَّه.

هذا التحوُّل شمل البصرة أيضًا، التي لم تدخل بقوَّة في سير الأحداث المؤثِّرة في الرحلة الحسينيَّة؛ لبُعدها عن الحدث، فقد تغيَّر موقف أهل البصرة، وقُتل يزيد بن مسعود، وخاف المنذر بن الجارود من مكيدة ابن زياد[2].

إذًا كان الخوف والقتل والتهديد أحد الأسلحة التي انتهجها عبيد الله بن زياد، ولا سيما مع مسلم بن عقيل، وهانئ بن عروة، فضلًا عن المال الذي استطاع الوالي من خلاله أن يحوِّل الكوفة ضدَّ الإمام الحسين عليه السلام، حتَّى قال الجنود الذين كانوا مع مسلم ابن عقيل: «ما نصنع بتعجيل الفتنة؟ ينبغي أن نقعد في منازلنا، وندع هؤلاء القوم حتَّى يُصلح الله بينهم»[3]، ولعلَّ أبيات حمران بن مالك الخثعميّ التي تمثَّل بها مسلم بن عقيل، تبيِّن أسباب تبدُّل الحال في الكوفة، فيقول:

أَقسَمتُ لَا أُقتَلُ إِلَّا حَرَّا
وَإِنْ رَأَيتُ المَوتَ شَيئًا نُكرَا
أَكْرَهُ أَنْ أُخْدَعَ أَو أُغَرَّا
أَو أَخلِطَ البَارِدَ سُخْنًا مُرَّا
كُلُّ اِمْرِئٍ يَومًا يُلَاقِي شَرَّا
أَضرِبُكُم وَلَا أَخَاف ضُرَّا

(١) الملهوف على قتلى الطفوف: ١٠٩.
(٢) المصدر نفسه: ١١٣.
(٣) المصدر نفسه: ١١٤.

فالخداع والإغراء وخلط الأمور كان سلاحهم في قتل الثورة وتفنيدها قبل وصول الإمام الحسين عليه السلام إلى الكوفة، والشروع فعليًّا بالثورة المزمع قيامها.

أمَّا كربلاء (الطَّفّ) فلم تكن - كمكان - ضمن مخطَّطات الرحلة الحسينيَّة، بل دفعت الظروف التي أحاطت بالركب الحسينيّ - ومن أبرزها مضايقات الحرِّ الرياحيّ - إلى الوصول إليها، فيقول ابن طاووس: «فمنعه الحرُّ وأصحابه من ذلك، وقال: لا، بل خُذ يابن رسول الله طريقًا لا يُدخلك الكوفة، ولا يوصلك إلى المدينة؛ لأعتذر إلى ابن زياد بأنَّك خالفتني الطريق...»[1].

وبذلك تدخل كربلاء الحدث كمكان طارد بالنسبة للإمام عليه السلام، ففيها تتمُّ محاصرته، ثمَّ تحدث فيها المعركة التي يستشهد فيها خيرة شباب بني هاشم، وأخيرًا تُسبى النساء إلى الكوفة، ثمَّ إلى الشام، وبذلك لا تحتاج كربلاء إلى أي حدث آخر لتكون كربًا وبلاءً على آل الرسول صلى الله عليه وآله، وقد أشار الإمام الحسين عليه السلام إلى عدائيَّة هذه البقعة عندما وصل إليها، يقول الراوي: «ثمَّ إنَّ الحسين عليه السلام قام وركب وسار، وكلَّما أراد المسير يمنعونه تارةً، ويسايرونه أخرى، حتَّى بلغ كربلاء، وكان ذلك في اليوم الثاني من المحرَّم، فلمَّا وصلها، قال: **ما اسم هذه الأرض؟**.

فقيل: كربلا.

فقال: **انزلوا هاهنا محطُّ رحالنا، ومسفك دمائنا، وهنا محلُّ قبورنا، بهذا حدَّثني جدِّي**. فنزلوا جميعًا، ونزل الحرُّ وأصحابه ناحية، وجلس الحسين عليه السلام يُصلح سيفه ويقول:

يَا دَهْرُ أُفٍّ لَكَ مِن خَلِيلِ
كَم لَكَ بِالإِشرَاقِ وَالأَصِيلِ

(١) الملهوف على قتلى الطفوف: ١٣٧.

مِـــنْ طَـــالِـــبٍ وَصَـــاحِـــبٍ قَـتِـيـلِ
وَالـــدَهـــرُ لَا يَـقـنَـعُ بِـالـبَـدِيـلِ
وَإِنَّـــمَا الأَمـــرُ إِلَى الجَـلِـيـلِ
وَكُـــلُّ حَـــيٍّ فَـــإِلَى سَـبِـيـلِ
مَـا أَقـــرَبَ الـوَعـدَ مِـنَ الـرَّحِـيـلِ
إِلَى جِـنَـانٍ وَإِلَى مَـقِـيـلِ[1]

لكنَّ التحوُّل الذي حدثَ في كربلاء، هو تحوُّل عكسيّ، فبعدَ انتهاء المعركة وسبي النساء والأطفال، والذهاب بهم إلى الشام، تحوَّلت هذه البقعة إلى مكانٍ جاذبٍ ومألوفٍ سواء لآل الرسول صلى الله عليه وآله أو لأتباعهم ومحبِّيهم، والتحوُّل هنا يحمل سمة التمرُّد والرفض، فعلى الرغم من خطورة الموقف، بدأ أتباع آل البيت عليهم السلام بالتوافد لزيارة مراقد الشهداء. يصوِّر ابن طاووس هذا التحوُّل المكانيّ فيقول: عندما عادت السبايا من الشام، وبلغوا العراق، «قالوا للدليل مرَّ بنا على طريق كربلاء، فوصلوا موضع المصرع، فوجدوا جابر ابن عبد الله الأنصاريّ رحمه الله، وجماعة من بني هاشم، ورجالًا من آل الرسول صلى الله عليه وآله، قد وردوا لزيارة قبر الحسين، فوافوا في وقتٍ واحد، وتلاقوا بالبكاء والحزن واللطم، وأقاموا المآتم المقرحة للأكباد، واجتمعت إليهم سائر نساء ذلك السواد، وأقاموا على ذلك أيامًا... ثمَّ انفصلوا طالبين المدينة»[2].

ومن الجدير بالذِّكر أنَّ كربلاء أصبحت تمثِّل في الأزمان اللاحقةَ مركزًا فكريًّا ودينيًّا لآل الرسول صلى الله عليه وآله، وقد استقرَّ المكان على هذه الصفة، على الرغم من توالي الدول التي سيطرت على الحكم؛ لكنَّها لم تستطع تغيير ماهيَّة هذا المكان الذي شغل التاريخ

(١) الملهوف على قتلى الطفوف: ١٣٩-١٤٠.
(٢) المصدر نفسه: ٢٢٥-٢٢٦.

الإسلاميّ منذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا.

وفي أرض كربلاء يحدث تحوُّل آخر يرتبط بشخوص الطَّفِّ أكثر من ارتباطه بالمكان، لكن كان للحادثة ومكانها تأثير واضح على هذا التحوُّل، ألا وهو تحوُّل الحرِّ ابن يزيد الرياحيّ، فالأحداث الدائرة في ساحة المعركة دفعت هذه الشخصيَّة للانتقال من معسكر ابن زياد إلى معسكر الحسين عليه السلام.

يصوِّر لنا ابن طاووس مجريات هذا التحوُّل ومعطياته فيقول: «وسار الحسين عليه السلام حتَّى صار على مرحلتَين من الكوفة، فإذا بالحرِّ بن يزيد في ألف فارس، فقال له الحسين عليه السلام: **ألنا أم علينا؟** فقال: بل عليك يا أبا عبد الله. فقال: **لا حول ولا قوة إلَّا بالله العليِّ العظيم**. ثمَّ تردَّد الكلام بينهما، حتَّى قال له الحسين عليه السلام: **فإذا كنتم على خلاف ما أتتني به كتبكم، وقدِمت بهِ عليَّ رسلكم، فإنَّني أرجع إلى الموضع الذي أتيت منه**، فمنعه الحرُّ وأصحابه من ذلك. وقال: بل خُذ يا ابن رسول الله طريقًا لا يُدخلك الكوفة، ولا يوصلك إلى المدينة؛ لأعتذر أنا إلى ابن زياد بأنَّك خالفتني في الطريق. فتياسر الحسين عليه السلام حتَّى وصل إلى عذيب الهجانات، قال: فورد كتاب عبيد الله بن زياد إلى الحرِّ يلومه في أمر الحسين عليه السلام، ويأمره بالتضييق عليه، فعرض له الحرُّ وأصحابه، ومنعوه من السير...»[1].

فموقف الحرِّ الرياحيّ- في ضوء هذا الكلام- يكشف أنَّه كان على مذهب عبيد الله بن زياد، لكن مع عدم اقتناعٍ بما يحدث، بدليل أنَّه قد سمح للركب الحسينيّ بتغيير مساره، قبل وصول كتاب عبيد الله بن زياد، لكن هذا الموقف يتحوَّل كليًّا مع بدء الحرب، وصراخ الإمام الحسين عليه السلام بقوله: «**أَما من مغيث يغيثنا لوجه الله، أَما من ذابٍّ**

(١) الملهوف على قتلى الطفوف: ١٣٨.

يـذبُّ عن حرم رسـول الله؟، قال: فـإذا الحرُّ بن يزيد قد أقبل إلى عمر بن سـعد، فقال: أمُقاتـلٌ أنت هذا الرجل؟! قال: أي والله قتالًا أيسره أن تطير الرؤوس وتطيح الأيدي، قـال: فمضى الحرُّ ووقف موقفًا من أصحابه، وأخذه مثـل الأفكل، فقال له المهاجر بن أوس: والله إنَّ أمـرك لمريب، ولو قيل لي مَن أشـجع أهل الكوفـة، لما عدوتك، فما هذا الـذي أرى منك؟ فقال: والله إنِّي أُخيِّر نفـسي بين الجنَّة والنار، فوالله لا اختار على الجنَّة شـيئًا، ولو قُطِّعت وأُحرقت. ثمَّ ضربَ فرسـه قاصدًا إلى الحسين عليه السلام، ويده على رأسه، وهو يقول: اللهـمَّ إليك أنبت فتُبْ عليَّ فقد أرعبت قلوب أوليائك وأولاد بنت نبيِّك. فقال للحسـين عليه السلام: جُعلت فداك أنا صاحبك الذي حبسك عن الرجوع وجعجع بك، وما ظننت أنَّ القوم يبلغون منك ما أرى، وأنا تائب إلى الله تعالى، فهل ترى لي من توبة؟ فقال الحسين عليه السلام: **نعم يتوب الله عليك...**»[1].

إنَّـه تحوُّل عكسيّ، وفي لحظات ربَّما تكون كفيلة بانقلاب المعسـكر على قادته، وهو يكشـف أنَّ جميع من في المعركة يعرفون أنَّ السـلطة الأمويَّة باغية على آل الرسـول صلى الله عليه وآله، فهكـذا تحـوُّلات دفعـت إليها ظـروف المعركة، والمحاججـة التي تصدر عن الحسـين وأهلـه عليهم السلام، فليس لديهم قـوَّة غير قوَّة الكلام، يحاربون بها خصومهـم؛ لعلَّها تجد آذانًا صاغيةً!.

في كربـلاء انتهـت الأماكن التي مرَّ بها الركب الحسـينيّ، لكنَّهـا تحوَّلت من واقعٍ هامـشيٍّ إلى واقعٍ جديـد، احتلَّت بموجبه صدارة الأماكن التي سـترتبط لاحقًا بحركة التاريـخ الإسـلاميّ، فستسـتمرُّ الثـورات المناهضة للسـلطة الأمويَّة كثـورة التوَّابين، وثـورة المختار، وثورة أبناء الزبـير، وثورة المدينة، وغيرها من الثورات التي مهَّدت لها، بشـكلٍ وآخر، ثورة الإمام الحسـين عليه السلام، وحوَّلـت بذلك كثيرًا مـن الأماكن إلى أماكن

(١) الملهوف على قتلى الطفوف: ١٥٩.

معاديـة رافضـة للحكم الأمـويّ، وإن كانت تحت حكمهـم، لكنَّها ربَّما تثـور بين ليلةٍ وضحاها.

ثانيًا: الأماكن الثابتة

في قصة (الملهوف على قتلى الطفوف) تسـيطر الأماكن المتحوِّلة على سـاحة النصِّ؛ لأنَّ الأماكـن تاريخيَّـة، تقـدِّم حدثًا واقعيًّـا، وليس افتراضيًّـا، من إبداعـات القاصِّ، فلا يستطيع الراوي تكييف الأحداث بشكل كبير؛ لأنَّها محكومةٌ بتلك المرحلة التاريخيَّة التـي تنتمي إليهـا، في مقابل ذلك اقتصرت الأماكن الثابتة على مكان واحد، وهو مركز الخلافة الأمويَّة في الشام، وبالتحديد القصر الأمويّ.

ومن الطبيعي أن تكون الشـام مكانًا خاضعًا للسلطة الأمويَّة ثابتة تجاه التحوُّلات الثقافيَّة، سـواء الفكريَّة منها، أو السياسـيَّة؛ لأنَّ معاوية أحسن إليهم، وجعلهم رجالًا للدولة في سـنوات حكمه، وعلى هذا الأساس كانت الشـام مكانًا طاردًا مغلقَ الدلالة بالنسـبة للركب الحسينيّ، منذ لحظة دخوله للشام، ثمَّ القصر الأمويّ، وحتَّى في الخربة التي أُسـكنوا فيها، ولعلَّ من أوضح الأدلَّة على ذلك الأحداث التي رافقت السـبايا في القصر الشـاميّ، هو عند دخولهم على يزيد، «دعا يزيـد بقضيب خيزران فجعل ينكث ثنايا الحسين، ثمَّ قال[1]:

لَـيـتَ أَشـيَـاخِـي بِـبَـدرٍ شَـهِـدُوا
جَـزَعَ الخَـزرَجِ مِـنْ وَقْـعِ الأَسَـلْ
فَـأَهِـلُّـوا وَاسْـتَـهِـلُّـوا فَـرَحًـا
ثَـمّ قَـالُـوا يَـا يَـزِيـدُ لَا تَـشَـلْ

(١) الملهوف على قتلى الطفوف: ٢١٤-٢١٥.

قَـدْ قَـتَـلْـنَـا الـقَـوْمَ مِـن سَـادَاتِـكُـم
وَعَـدَلْـنَـا مَـيْـلَ بَـدْرٍ فَـاعْـتَـدَلْ
لَـعِـبَـتْ هَـاشِـمُ بِـالْمُـلْـكِ فَـلا
خَـبَرٌ جَـاءَ وَلَا وَحْـيٌ نَـزَلْ
لَـسْـتُ مِـنْ خِـنْـدَفَ إنْ لَمْ أَنْـتَـقِـم
مِـنْ بَـنِـي أَحْمَـدَ مِـا كَـانَ فَـعَـلْ

فضلًا عن ذلك، طلب يزيد من أحد الخطباء، بعد اشتداد الجدل مع عليّ بن الحسين عليه السلام، اعتلاء المنبر وسبِّ الحسين وأبيه عليهما السلام، فصعد وبالغ في ذلك، ومدح يزيد معاوية، فقال له الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام: «**ويلك أيُّها الخاطب، اشتريت رضا المخلوق بسَخَط الخالق، فتبوَّأ مقعدك من النار**»[1].

على أنَّ هذا الثبات تعرَّض لبعض الهزَّات في داخل القصر، عندما اعترض بعض الحاضرين، على إثر الاستماع لخطبَتي الإمام السجَّاد والسيِّدة زينب (سلام الله عليهما)[2]، لكن سرعان ما تدخَّلت يد السلطة بالقتل أو الطرد، الأمر الذي أعاد الثبات إلى وضعه الطبيعيّ، وقد بقيت الشام كمكان طارد إلى سقوط الدولة الأمويَّة عام (١٣٢هـ).

في ختام هذا المحور الذي وصفنا فيه تحوُّلات المكان في قصَّة (الملهوف على قتلى الطفوف)، يجوز لنا أن نتساءل عن النسق الكامن خلف نقض العهد، وعدم الوفاء به، خصوصًا من أهل الكوفة، والكوفة بالتحديد كمكان؛ لأنَّ المدينة ومكَّة وكربلاء لم تمر بتحوُّل كبير مثل الكوفة، فهذه المدن في الأساس كانت معادية لبني أميَّة، ولم ترسل بالرسائل، بل لم تسعَ للثورة آنذاك، بمعنى أنَّ التحوُّل (فيما يخصُّ آل البيت) فيها

(١) الملهوف على قتلى الطفوف: ٢١٩.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢١٤-٢١٩.

كان جـرَّاء معطيات فُرِضت على الإمام الحسـين عليه السلام، لكنَّ الكوفة مثَّلت تحوُّلًا عكسـيًّا كبيرًا، أدَّى إلى تغيير مسار الأحداث، على أنَّ هذا التحوُّل في موقف المدينة تجاه القضايا السياسيَّة متجذِّر فيها ومتجدِّد، فيكفينا موقفهم مع الإمام عليّ والإمام الحسن ثمَّ الإمام الحسين عليهم السلام، هذا السؤال سـيكون المحور القادم الذي سنحاول فيه تتبُّع النسق الحاكم لهذه المدينة.

المحور الرابع

التحوُّل المكانيّ بين التنوُّع الاجتماعيّ والنَّسق الفكريّ

يـرى كثير من النقَّاد أنَّ المكان ليس مجرَّد وعـاء يحتضن الأحداث، بل هو مجموعة من المعطيات والتجارب الإنسـانيَّة، والمكان الناجـح في العمل الأدبيّ، هو المكان الذي يتحوَّل إلى شـخصيَّة مشـاركة بالحدث القصصيّ؛ لذلك احتلَّت الأماكن حيِّزًا كبيرًا في الدرس النقديّ السرديّ، وإذا كان المكان بهذه الأهميَّة في الحياة الإبداعيَّة، فكيف الحال بالحياة الواقعيَّة؟.

من المؤكَّد أنَّ أي تشـكُّل لمكانٍ ما على فكرٍ معـيَّنٍ، أو طبيعةٍ معيَّنة، لا بدَّ أن يرجع لمحرِّكات ثقافيَّة بدهيَّـة، أو من صنع البشر، فتحوُّل الأماكن وتقلُّباتها لا يحدث جُزافًا، وهـذا ما حدث في أماكن قصص الطفِّ، ولاسـيما الكوفة- كما أشرنا سـابقًا- فالمدينة ومكَّـة وكربلاء لم يحدث فيها تحوُّل عكسي، بـل تحوُّلها لمكانٍ معادٍ جاء وفاقًا للمعطيات التي فرضتها السلطة الحاكمة آنذاك، ومن ثمَّ ليس هناك انقلاب مكانيّ، بل هناك تحوِّل مـكانيّ، لكـن في الكوفة حصل تحـوِّل وانقلاب مـكانيّ، الأمر الذي سـيجعل حديثنا عـن الكوفة- خصوصًا- كمكان جاذب وطارد وجاذب مرَّة أخرى لآل الرسـول صلى الله عليه وآله وأتباعهم.

إنَّ وصفنـا لتحوُّل الكوفـة بالانقلاب المكانيّ يرجع لكون أهـل الكوفة لم يلتزموا بالعهود والمواثيق التي كتبوا بها للإمام الحسين عليه السلام، بل انقلبوا عليه، وقاتلوا مع السلطة

الأمويَّة ضدَّه في واقعة الطفِّ، فهو انقلاب متكامل الأركان، فلم تنصر الكوفة مسلم ابن عقيل، ولم تنصر عروة بن هانئ، وأخيرًا خذلت الثورة الحسينيَّة بقتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، وسبي بقيَّة الذريَّة الطاهرة.

ولعلَّ ممعن النَّظر في هذا الموقف يتساءل عن سبب ذلك، كيف يخون المرء العهد؟ والعهد موثَّق ومدوَّن، وهو لشخص أقرب ما يكون لرسول الله صلى الله عليه وآله، وقد تواترت الأحاديث في منزلته ومكانته، فكان سيِّدًا لشباب أهل الجنَّة.

إنَّ الإجابة عن هذا التساؤل تعني البحث في المحرِّكات الثقافيَّة للمجتمع الكوفيّ، للوقوف على النسق الثقافيّ الذي كوَّن ثقافة عدم الالتزام والخيانة عند سكَّان الكوفة آنذاك.

يمكن أن تتمَّ بالإجابة عن هذا السؤال بالمتداوَل في الأوساط الدينيَّة والفكريَّة العامَّة، وهي أنَّ السلطة الأمويَّة، بواليها في الكوفة عبيد الله بن زياد، استطاعت أن تفنِّد الثورة، تارةً بالترهيب (فقتلوا من ثبت على العهد)، وتارةً بالترغيب، وبذل المال لأغلب من بايع الإمام عليه السلام، ولعلَّ الترهيب كان سلاحهم الفتَّاك الذي جعل الناس تتراجع وتختفي في بيوت الكوفة وأزقتها، من دون أيِّ ردَّة فعل، كأنَّ شيئًا لم يكن، حتى قال بعضهم: «ما نصنع بتعجيل الفتنة؟ ينبغي أن نقعد في منازلنا، وندع هؤلاء القوم حتَّى يصلح الله بينهم»[1]، لكن الحقيقة أعمق من ذلك، وهي كفيلة برصد آليات (التحوُّل) الانقلاب المكانيّ الذي حصل في الكوفة، الأمر الذي سيعطينا صورة واضحة لتلك المرحلة وتحولاتها الفكريَّة والمكانيَّة.

إنَّ الغاية من تأسيس الكوفة- كما تشير كتب التأريخ والخطط- هي إنشاء معسكر تقيم فيه المقاتلة من المسلمين الذين دحروا الجيوش الساسانيَّة وفتحوا المدائن، وهذا

(١) الملهوف على قتلى الطفوف: ١١٤.

يعني أنَّ الوافدين إليها ستتنوَّع مشاربهم، فقد ورد للكوفة مجموعة من القاتلة مع قبائلهم من العرب من العراق والحجاز واليمن، ومن غير العرب من الفرس، فضلًا عن اليهود والنصارى والنبط والسريان الذين سكنوا الكوفة(١)، حتَّى قال اليعقوبي بأنَّ الكوفة: «أهلُها أخلاطٌ من الناس»(٢).

هذا يعني أنَّ المجتمع الكوفيّ المكوَّن حديثًا لا ينتمي إلى ثقافة واحدة، بل يمثِّلون أمزجة مختلفة تجمع بين البداوة والحضريَّة، بين الداخل في الإسلام حديثًا، وبين المتقدِّمين بالسبق إليه، بين المقتنع فعلًا، وبين المتردِّد الذي جاء طمعًا في الغنائم والرِّفعة، ولم يصل بعد إلى القناعة الكاملة، ويضاف إلى ذلك أنَّ هؤلاء تعلَّموا على ثقافة الامتثال والطاعة لقائد الجيش والحاكم؛ بوصفهم عسكرًا، ويرتبط هذا الأمر بمسألة العطاء التي تسيطر عليها الدولة الحاكمة، فهي مصدر رزقهم؛ لذلك هم مطيعون لها؛ لأنَّهم جاؤوا للقتال الذي لا يعرفون غيره، وعلى هذا الأساس لا ينظر هؤلاء إلى الجانب العقائديّ والأخلاقيّ والدينيّ والعلميّ، فهذه الأمور لم تحظَ باهتمامهم؛ لأنَّهم يخضعون للأمر العسكريّ الذي له مفهوم واحد، وهو الطاعة، ومصداق واحد، وهو التنفيذ(٣).

وقد بيَّن لنا الإمام الحسين عليه السلام جزءًا من ثقافة هؤلاء القوم في خطبته لهم، وكذلك فعلت السيِّدة زينب عليها السلام بعد حادثة الطَّفِّ، إذ يقول الإمام عليه السلام: «**تبًّا لكم أيَّتها الجماعة وترحًا، أحين استصرختمونا والهين، فأصرخناكم موجفين، سَللتم علينا سيفًا لنا في أيمانكم، وحششتم علينا نارًا اقتدحناها على عدوِّنا وعدوِّكم، فأصبحتم إلْبًا لأعدائكم على أوليائكم، بغير عدلٍ أفشوه فيكم، ولا أملٍ أصبح لكم فيهم، فهلَّا لكم الويلات**

(١) ينظر فتوح البلدان: ٣٨٧، وما بعدها، الكوفة وأهلها في صدر الإسلام: ٥٣، وما بعدها.
(٢) البلدان: ١٤٥.
(٣) ينظر: الأنثروبولوجيا الاجتماعيَّة والثقافيَّة للمجتمع الكوفيّ عند الإمام الحسين: ٢٦.

تركتمونا، والسيف مشيم، والجأش ضامرٌ، والرأي لـمَّا يستحصف، ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدَّبا، وتداعيتم إليها كتهافت الفراش، ثمَّ نقضتموها، فسُحقًا لكم يا عبيد الأمَّة، وشذَّاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومحرِّفي الكلم، وعصبة الإثم، ونفثة الشيطان، ومطفئي السُّنن، ويحكم أ هؤلاء تعضدون، وعنا تتخاذلون، أجَلْ والله غدرٌ فيكم قديم، وشجَّت عليه أُصولكم، وتآزرت فروعكم، فكنتم أخبث ثمرٍ شجٍّ للناظر، وأكلةٍ للغاصب»[1].

وقد أكدت السيِّدة زينب عليها السلام خطبة أخيها عليه السلام بقولها: «الحمد لله والصلاة على جدِّي محمَّد وآله الطيِّبين الأخيار، أمَّا بعد: يا أهل الكوفة، يا أهل الختل والغدر!! أتبكون؟ فلا رقأت الدمعة، ولا هدأت الرنَّة، إنَّما مَثَلكم كمَثَل التي نقضت غزلها من بعد قوَّة أنكاثًا، تتَّخذون أيمانكم دخلًا بينكم، ألا وهل فيكم إلَّا الصلف النطف؟ والصدر الشنف؟ وملق الإماء؟ وغمز الأعداء؟ أو كمرعى على دمنة؟ أو كفضة على ملحودة؟ ألَا ساء ما قدَّمت لكم أنفسكم، إن سخط الله عليكم، وفي العذاب أنتم خالدون.

أتبكون؟ وتنتحبون؟ إي والله، فابكوا كثيرًا، واضحكوا قليلًا، فلقد ذهبتم بعارها وشنارها، ولن ترحضوها بغسلٍ بعدها أبدًا، وأنَّى ترحضون قتل سليل خاتم النبوَّة، ومعدن الرسالة، وسيِّد شباب أهل الجنَّة، وملاذ خيرتكم، ومفزع نازلتكم، ومنار حجَّتكم، ومدرة سنَّتكم؟؟ ألا ساء ما تزرون، وبُعدًا لكم وسحقًا، فلقد خاب السعي، وتبَّت الأيدي، وخسرت الصفقة، وبؤتم بغضب من الله، وضُربت عليكم الذلَّة والمسكنة...»[2].

تكشف لنا الخطبتان جزءًا من عقليَّة وتصرفات أهل الكوفة آنذاك، فهم «أهل خيانةٍ ومكرٍ وكذبٍ وشرٍّ، نبذوا الكتاب، وحرَّفوا الأحاديث والسنَّة، أقبلوا على الدنيا

(١) الملهوف على قتلى الطفوف: ١٥٥-١٥٦.
(٢) المصدر نفسه: ١٩٢-١٩٣.

كطير الدِبا، وتهافت الفراش، فيهم الصلف، والنطف، والصدر الشنف...».

إذن كانت عقليَّتهم عقليَّة دنيويَّة باحثة عن المنافع الزائلة؛ لذلك لا يتورَّعون في قتال ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد تلاءمت هذه الصفات مع ثقافة الامتثال العسكريّ من دون مراجعة الأوامر أو مناقشتها؛ لأنَّ الهدف المنفعة المحضة، بعيدًا عن القيم والأخلاق والسنَّة النبويَّة.

هذه النزعة النفعيَّة وجدت نفسها في بيئة تساعدها على ذلك، فقد عمدت الدولة إلى وضع خطط للكوفة في زمن عمر بن الخطاب، فقسَّمتهم بشكلٍ قَبَليّ تكتُّليّ على نظام (الأعشار، والأسباع، والأرباع)[1]، إذ وضعت كلُّ قبيلة وبطونها وحلفائها في منطقة معيَّنة من الكوفة، الأمر الذي جعل النزعة القبليَّة والجاهليَّة سائدة في الكوفة، وصار الشغل الشاغل لديهم السعي للمنفعة والنفوذ لدى السلطة الحاكمة، فالتنوُّع السكَّانيّ، واختلاط الأمزجة شكَّلا نسيجًا اجتماعيًّا يحمل ثقافة هجينة نشأت من مجموعة من سلوكيَّات وعادات قبائليَّة وعرقيَّة، دفعت إلى ظهور حالات من التكتُّل القبليّ الذي يحمل الحسّ الجاهليّ والتحزب العشائريّ الساعي إلى توسعة نفوذه بأيِّ طريقةٍ كانت، فشكَّل ذلك عاملًا مهمًّا في تكوين ثقافة المجتمع الكوفيّ التي ظهرت- فيما بعد- في يوم عاشوراء[2].

وعلى هذا الأساس، كان التنوُّع السكَّانيّ في الكوفة سببًا رئيسًا في نشوء ثقافة المنفعة وخيانة العهد، وليس الأمر بمقتصر على الإمام الحسين عليه السلام، بل كانت هذه الثقافة حاضرة قبل الثورة الحسينيَّة وبعدها، لكنَّ التنوُّع السكَّانيّ (تعدُّد الأمزجة والمشارب) ليس السبب الوحيد لوجود هكذا ثقافة تكسبيَّة، بل هناك عامل أخطر منه، وهو العامل

(١) ينظر: تاريخ الطبريّ: ٣/ ١٥٢، الكوفة وأهلها في صدر الإسلام: ١٣٣، وما بعدها.
(٢) الأنثروبولوجيا الاجتماعيَّة الثقافية للمجتمع الكوفيّ عند الإمام الحسين: ٣٦.

الفكريّ، أي السعي لتغيير ديموغرافيَّة الكوفة، وهذا العامل هو المؤثِّر الرئيس في تكوُّن صورة الكوفة على المشخَّصة آنفًا؛ لأنَّ التنوُّع السكَّانيّ يمكن أن يتمَّ توظيفه بشكلٍ إيجابيّ لو وجِدَت إرادة لهذا الأمر، لكن النسق الفكريّ استغل هذا التنوُّع بصورة سلبيَّة بما يخدم مصالحه، وعمل على تطويره من دون أن يراعي حالة التصدُّع الاجتماعيّ التي ستحدث لاحقًا.

من أولى الخطوات ذات النسق الفكريّ للسلطة على المجتمع الكوفيّ تتمثَّل بتهجير القبائل والشخصيَّات المعارضة لهم، والموالية لآل الرسول صلى الله عليه وآله، وإنزال قبائل وشخصيَّات موالية للسلطة، أو لا يهمُّها الولاء بقدر البحث عن المنافع والمصالح الشخصيَّة.

وفي هذا السياق يذكر الطبريّ في تاريخه كيف نقل معاوية القبائل إلى الكوفة، ومنهم سُجاح التميميَّة المدعيَّة للنبوَّة هي وقومها، فيقول: «ولم تزل سجاح التميميَّة، وهي التي ادَّعت النبوة في بني تغلب، حتَّى نقلهم معاوية عام الجماعة في زمانه، وكان معاوية حين أجمع عليه أهل العراق بعد عليّ عليه السلام، يخرج من الكوفة المستغرب في أمر عليّ، وينزل داره المستغرب في أمر نفسه من أهل الشام وأهل البصرة، وهو الذين يقال لهم النواقل في الأمصار»[1].

وفي الإطار نفسه، قام زياد بن أبيه بتهجير كلِّ من يظنُّ به المولاة لآل الرسول صلى الله عليه وآله، فقام بنقل المقاتلة الأعاجم إلى الشام والبصرة، ولم ينقلهم لبلادهم الأصليَّة! قال البلاذريّ: «إنَّ زيادًا سيَّر بعضهم إلى بلاد الشام بأمر معاوية، فهم يدعون بها الفرس، سيَّر قومًا منهم إلى البصرة، فدخلوا في الأساورة الذين بها»[2].

(١) تاريخ الطبريّ: ٢/ ٥٠٠.
(٢) فتوح البلدان: ٣٩٤.

وفي عمليَّة تهجيريَّة أخرى، قام زياد بنقل خمسين ألف من مقاتلة البصرة والكوفة مع عيالاتهم إلى خراسان[1]! وغيرها من عمليَّات التغيير الديموغرافيّ التي قام بها ولاة بني أميَّة آنذاك. لكن السؤال المهمَّ هنا: لماذا أرسل هذه الجيوش إلى بلدان غير بلدانهم؟.

إنَّ الهدف من هكذا تحرُّكات، هو جعل الكوفة خاضعة للسلطة الأمويَّة، وتشتيت مركز المعارضة في أنحاء الأمَّة الإسلاميَّة؛ لكي يضعف تأثيرها على المجتمع، وتضمحل شيئًا فشيئًا. وممَّا يتَّصل بهذا الصدد، إشاعة السبِّ والشتيمة لآل الرسول صلى الله عليه وآله في الخطب والمناسبات، والنيل منهم[2]، وقطع الأرزاق لمن يحبُّ عليًّا ويواليه، جاء في شرح نهج البلاغة قوله: «**انظروا إلى من قامت عليه البَيِّنة أنَّه يحبُّ عليًّا وأهل بيته، فأمحَوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه...**»[3].

ولم يقتصر الأمر على هذه المحاولات فقط، فيظهر لنا في (قصة الملهوف) أنَّ الدولة الأمويَّة مكَّنت شخوصًا وقبائل في مدينة الكوفة كانوا مضطربين فكريًّا ودينيًّا، وجعلوهم قادة على الجيش وعلى القطاعات الأخرى، وعلى رؤوس قبائلهم أيضًا، الأمر الذي جعل التصرُّفات المستقبحة مشاعةً في الكوفة، والازدواجيَّة في المواقف مقبولة، وبُغض آل الرسول صلى الله عليه وآله، ولاسيما الإمام عليّ عليه السلام، من الأمور المطلوبة في الكوفة، ومن هذه الشخصيَّات (شبث بن ربعي، وسماك بن مخرمة، والأشعث بن قيس، وزياد ابن أبيه وولده عبيد الله بن زياد)، إذ تذكر لنا كتب التاريخ إطلاق أيديهم في الكوفة، وخدمتهم للدولة الأمويَّة، وقد جمعهم بُغض آل الرسول صلى الله عليه وآله، وتقلُّب المواقف، فنجدهم مرَّة قد

(١) فتوح البلدان: ١٠٩.
(٢) ينظر: في ذلك مسند أحمد: ٣/ ١٧٤، فتح الباري شرح صحيح البخاريّ: ٧/ ٧١.
(٣) شرح نهج البلاغة: ١١/ ٤٥.

ارتدُّوا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، ومرَّة نجدهم ضمن الخوارج، ومرَّة أخرى يحاربون الإمام علي عليه السلام ويسبُّونه ويقتلون وِلده [1]، فتقلُّبهم وميلهم لهواهم، استغلَّته الدولة الأمويَّة في تغيير المزاج العام في الكوفة، والهدف منه تنشئة جيل يبغض الهاشميِّين عمومًا.

إنَّ القارئ لكتاب (الملهوف على قتلى الطفوف) يجد أنَّ خطب آل البيت (زين العابدين، السيِّدة زينب، وأم كلثوم)[2] جميعها تبدأ بعبارة (يا أهل الكوفة، يا أيها الناس)، وفي ذلك إشارة واضحة لتحوُّل المكان كليًّا لمكانٍ معادٍ للثورة الحسينيَّة، إذ نجحت السياسة الأمويَّة في توطين العداء لآهل البيت عليهم السلام، مستغلَّة تنوُّع مشارب القبائل، وعدم توافق أمزجتها، وقَبلِيَّتها، ورغبتها في الصدارة، وحداثة إسلامها، فأشاعت أفكارها في بغض آل الرسول عليهم السلام في الكوفة، وبذلك غذَّت القبائل بهذا المعطى الذي سيطر على الخطاب الثقافيّ في الكوفة، الأمر الذي جعل التحوُّل والازدواجيَّة الفكريَّة نسقًا ظاهرًا تغذِّيه محرِّكات وقيم ثقافيَّة سلطويَّة، ومن أبرزها المعطى السياسيّ الذي رسمته السياسة الأمويَّة آنذاك.

إنَّ التحوُّلات المكانيَّة الحاصلة في (قصص الطَّفِّ) ما هي إلَّا صورة للمجتمع الإسلاميّ العربيّ في ذلك الوقت، فقد تراجعت القيم الساميَّة التي زرعها الرسول صلى الله عليه وآله لصالح الأفكار والعادات الجاهليَّة. لقد تصدَّع المجتمع الإسلاميّ، وتحوَّل إلى فِرَق وجماعات تركوا القرآن الكريم والسنَّة النبويَّة، وراحوا يجتهدون من دون علم، فأضاعوا الأمَّة الإسلاميَّة، وجعلوها تنقض غزلها من بعد قوَّةٍ.

إذن نستطيع القول، بعد هذا الكلام، أنَّ التحوُّل المكانيّ في الكوفة كان ظاهرة

(١) ينظر في ذلك: أسد الغابة: ١/ ٩٨، تاريخ اليعقوبيّ: ٢/ ١٨٨، ٢٠٠، الأعلام: ٣/ ١٥٤، فتح الباري شرح صحيح البخاريّ: ٧/ ٧١.
(٢) الملهوف على قتلى الطفوف: ١٩٢، وما بعدها.

اجتماعيَّة يحكمها نسق سياسيّ بهدف إحكام السيطرة على الكوفة، وتغيير نمط التفكير بين أهلها؛ لأنَّها ببساطة كانت متمرِّدة غير مستقرَّة، فيها ارتباط معنويّ بآل الرسول صلى الله عليه وآله، الأمر الذي ينذر بتمرُّدها؛ لذلك وضع معاوية خطَّة لتغيير بنائها الاجتماعيّ، فنقل الموالين وجلب المعادين لأهل البيت عليهم السلام.

أمَّا في بقيَّة الأماكن التي وردت في قصَّة الطَّفِّ (المدينة، كربلاء، الشام)، فحكمها النسق السياسيّ المتمثِّل بقوَّة السلطة الأمويَّة، فتحوَّلت بفعل ذلك إلى مكان طارد لآل الرسول صلى الله عليه وآله، فهي أماكن تخضع للسلطة ولا تقاومها، لكنَّها رافضة لها، لكنَّه رفضٌ قلبيّ سرعان ما سيتحوَّل إلى رفضٍ علنيّ بتأثير الثورة الحسينيَّة.

ومن الجدير بالذِّكر أنَّ النسق الثقافيّ الحاكم في تحوُّلات المكان نسق ظاهر، وليس مضمرًا، هو متَّصل بجميع الأحداث ومسيطر عليها، لكنَّه بارز للعيان، وهذا يكشف ناحية أخرى لنا من السلطة الأمويَّة، فهي لم تخشَ أن تُظهر ذلك إلى العلن، ولم تخفِ تحرُّكاتها الفكريَّة أو العسكريَّة، وذلك يكشف لنا جانبًا خطيرًا من ثقافة الأمَّة الإسلاميَّة، فهي أمَّة انقلبت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله بصورة كاملة، تحوَّلت إلى أمَّة مستغِلَّة للدين، وليست مؤمنة به.

الخاتمة

في الختام، توصَّل البحث إلى مجموعة من النتائج، وهي:

١. يمثِّل كتاب الملهوف على قتلى الطفوف نوعًا نثريًّا احتلَّ حيِّزًا جيِّدًا في الساحة النثريَّة العربيَّة، لكن لم يحظَ بالاهتمام، على الرغم من كثرته، ولاسيما في قصَّة الطَّفِّ التي جسَّدت نمطًا قصصيًّا يعتمد على قصَّة تاريخيَّة.

٢. إنَّ المكان في قصَّة الملهوف على قتلى الطفوف هو المحرِّك الرئيس للحدث العام، فحركيَّة الحدث وترتيبه تابع لحركيَّة المكان وتقلُّباته داخل النصِّ القصصيّ؛ لذلك نجد الشخصيَّات تتحرَّك في مدار المكان؛ وذلك يرجع إلى كون القصَّة تاريخيَّة مشتقَّة من الواقع، فيكون المكان شخصيَّة مشاركة في بناء الحدث وتحوُّلاته.

٣. الأماكن في موضوع البحث على قسمَين: الأماكن المتحوِّلة (المدينة، مكَّة، الكوفة)، والأماكن الثابتة التي مثَّلتها (الشام، والقصر الأمويّ)، وهذا التقسيم يخضع للوضع السياسيّ القائم في تلك الحقبة الزمنيَّة.

٤. خضعت جميع المدن التي وردت في قصَّة الملهوف لتحوُّلات مكانيَّة، لكن شكل التحوُّل في بعضها كان على مرحلتَين، فبعضها كان جاذبًا، ثمَّ تحوَّل لطارد، ثمَّ رجع ليكون جاذبًا، وبعضها بقي طاردًا من دون تغيير يُذكر، وهذا يكشف لنا الشخصيَّة المجتمعيَّة لسكَّان تلك الأماكن آنذاك.

٥. كان التنوع السكَّانيّ سببًا في كثرة الآراء وتداخلها في الكوفة، الأمر الذي خلق نزعة تمرديَّة ومزاجًا ازدواجيًّا لدى أهل الكوفة آنذاك، إذ لم تعمل الدولة على تقليص هذا الخطر المجتمعيّ، بل زادت فيه من أجل مصالحها الخاصَّة، فضلًا عن ذلك قامت الدولة الأمويَّة بسلسلة من الإجراءات التي حوَّلت المجتمع الكوفيّ إلى مجتمع متصدِّع، فقد جلبت ولاةً لا يعرفون سوى لغة القتل والتهديد، ثمَّ عزلت أهل الدين والمعرفة، وأطلقت يد الجهلة والمرتدِّين من أمثال شبث بن ربعيّ، وغيره.

٦. ويُضاف إلى ذلك تهجيرهم للقبائل التي لا تخضع لقوانينهم إلى بلدان بعيدة، وإنزال القبائل الموالية لهم محلَّها، مهما كانت صفاتهم، ومنها أنَّهم جاؤوا بسجاح التميميَّة التي ادَّعت النبوَّة، وتزوَّجت بمسيلمة الكذَّاب، إلى الكوفة عاصمة الخلافة الإسلاميَّة!.

المصادر

١. إشكاليَّة المكان في النصِّ الأدبيّ: ياسين النصير، دار الشؤون الثقافيَّة، بغداد، ط١، ١٩٨٦م.
٢. الأعلام: الزركليّ، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، ٢٠٠٢م.
٣. أمل الآمل في علماء جبل عامل: محمَّد بن الحسن العامليّ، تحقيق: أحمد الحسينيّ، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ط١، ١٣٨٥هـ.
٤. الأنثروبولوجيا الاجتماعيَّة لمجتمع الكوفة عند الإمام الحسين: نبيل الحسنيّ، قسم الشؤون الفكريَّة والثقافية، العتبة الحسينيَّة المقدَّسة، ط١، ١٣٣٠هـ/ ٢٠٠١م.
٥. بلاغة المكان (قراءة في مكانة النصِّ الشعريّ): فتحيَّة كحلوش، مؤسَّسة الانتشار العربيّ، بيروت ط١، ٢٠٠٨.
٦. البناء الفنِّيّ في الرواية العربيَّة في العراق: شجاع مسلم العاني، دار الشؤون الثقافيَّة، بغداد، ١٩٩٤م.
٧. بنية الخطاب الروائيّ عند نجيب الكيلانيّ: الشريف حبيله، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، أربد، ط١، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.
٨. بنية الشكل الروائيّ: حسن بحراوي، المركز الثقافيّ، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.
٩. بنية النصِّ السرديّ من منظور النقد الأدبيّ: حميد لحمداني، المركز الثقافي العربيّ، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩١م.

١٠. تاريخ بغداد: الخطيب البغداديّ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

١١. جماليَّات المكان في الشعر الجاهليّ (المعلَّقات أنموذجًا): فوَّاز معمري، جامعة محمَّد بو ضياف، أطروحة دكتوراه، ٢٠١٧-٢٠١٨م.

١٢. الدار البيضاء تاج العروس من جواهر القاموس: الزبيديّ، مجموعة من المحقِّقين، دار الهداية، د.ط، د.ت.

١٣. الذريعة إلى تصانيف الشيعة: الشيخ آغا بزرك الطهرانيّ، دار الأضواء، بيروت، ط٢، د.ت.

١٤. الرواية والمكان: ياسين النصير، (ضمن الموسوعة الصغيرة)، الشؤون الثقافيَّة العامَّة، بغداد ١٩٨٦.

١٥. سير أعلام النبلاء: الذهبيّ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسَّسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٩، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

١٦. شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيَّة، مصر، د.ط، ١٩٦١م.

١٧. غائب طعمة فرمان روائيًّا: فاطمة عيسى جاسم، دار الشؤون الثقافيَّة، بغداد، ط١، ٢٠٠٤م.

١٨. فتح الباري في شرح صحيح البخاريّ: ابن حجر العسقلانيّ، دار المعرفة، بيروت، د.ط، ١٣٧٩هـ.

١٩. فتوح البلدان: البلاذريّ، عبد الله أنيس الطبَّاع، مؤسَّسة التعارف، بيروت، د.ط، د.ت.

٢٠. الفهرست: ابن النديم، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٢١. الكوفة وأهلها في صدر الإسلام: صالح أحمد العليّ، شركة المطبوعة للتوزيع والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.
٢٢. مختصر النهضة الحسينيَّة: الأب انستاس الكرمليّ، مجلَّة لغة العرب، ج٥، ١٩٢٧م.
٢٣. مدخل إلى نظريَّة القصَّة (تحليلًا وتطبيقًا): سمير المرزوقي، جميل شاكر، دار الشؤون الثقافيَّة، بغداد، د.ط، د.ت.
٢٤. مسند أحمد: أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسَّسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
٢٥. مشكلة المكان الفنِّيّ: يوري لوتمان، تقديم وترجمة: سيزا قاسم، مجلَّة ألف باء، ع٦ لسنة ١٩٨٦.
٢٦. معجم البلدان: الحمويّ، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.
٢٧. معجم مصطلحات السرد: بو علي كحال، عالم الكتب للطباعة والنشر، الجزائر، ٢٠٠٢م.
٢٨. المكان في شعر الحرب: محمَّد صادق جمعة، رسالة ماجستير، كليَّة التربية، جامعة الموصل، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.
٢٩. المكان ودلالاته في رواية مدن الملح: عبد الرحمن منيف، صالح الولعة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.
٣٠. الملهوف على قتلى الطفوف: عليّ بن موسى بن طاووس، تحقيق: فارس تبريزيان، دار الأسوة، طهران، ط٤، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠١م.
٣١. الوافي بالوفيات: الصفديّ، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، د.ط، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.